قراءة وصفية لكتاب "تأويل الدعائم" للقاضي النعمان بن حيون المغربي

خالد الضريف
باحث في سلك الدكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط
أستاذ مادة اللغة العربية بالثانوي التأهيلي
المغرب

ملخص:

يقدم هذا المقال دراسة وصفية لكتاب "تأويل الدعائم" للقاضي النعمان، تتجلى أولا في التعريف بهذا العالم المغربي، وذكر إسهاماته ومؤلفاته التي تفصح عن عقيدته وفلسفته الخاصة في علم الكلام، خاصة المؤلَّف – قيد الدراسة– باعتباره مرجعا أساسيا في ترسيخ وتعليم أصول العقيدة الإسماعيلية، ثم من أجل التعريف كذلك بهذه الفرقة الباطنية المنشقة عن الشيعة، وذكر نشأتها وأهم أصولها القائمة في المجمل على مبدأ التأويل؛ حيث إنهم يعتقدون أن النصوص الدينية غير مقصودة في ظاهرها، فهي أسرار مكتوبة وحقائق خفية، لا تدرك إلا بالتأويل، وهذا من شأن أهل العلم الحق، علم الباطن، فبالتأويل يتم الكشف عن هذه المعاني الخفية وفهمها للوصول إلى المقصود الحقيقي من كلام الله، وهذا ما يحيل إليه الكتاب "تأويل الدعائم"، فقد انتقل مؤلفه من المعنى الفقهي الظاهر الذي يمثل الشريعة والأحكام – كما هو مقرر في كتابه دعائم الإسلام– إلى المعنى الباطني العقدي الذي يمثل الحقيقة، فأضحى الكتاب تربية للمؤمنين بالتوقيف على حدود باطن علم الدين، ويعد المعتمد الأساس في تفسير فقه الشيعة الفاطميين، فكان يقرأ منه صاحبه في مجالس تعليمية، تسمى بمجالس الحكمة، لذلك يتبين من خلال منهجه أن الكتاب في أصله عبارة عن مجموعة من التأويلات الباطنية التي كانت تلقن لأولياء المذهب الإسماعيلي في زمن محدد، ومجلس معين؛ ومن ثمة جاء الكتاب مبوبا حسب المجالس، تبعا لما سيلقن ويقرأ في كل جلسة/حصة. وفي ذلك إشارة أيضا إلى امتداد الكتاب واستمراره في حياة الفرقة الإسماعيلية بعد وفاة القاضي النعمان، يتدارسه جيل عن جيل، ويتلقاه الملقنون استجابة لأمر الدعوة.

Abstract:

This article presents a descriptive study of the book "TAWIL ADAEAYIM" by Judge Al-NUMAN, it is evident first in introducing this Moroccan Jurist, and mentioned his contributions and writings which reveal his belief and own philosophy in theology, especially the book - under study - as an essential reference in consolidating and teaching the fundamentals of the Ismaili faith, Then, in order to also introduce this esoteric sect that separated from the Shiites, and mentioned its origins and its most important principles, which are generally based on the principle of interpretation, they believe that religious texts are not intended on their surface, They are written secrets and hidden truths that can only be understood through interpretation, This is the business of the people of true knowledge, the knowledge of the esoteric. Through interpretation, these hidden meanings are revealed and understood in order to arrive at the true meaning of God's words, this is what the book indicates, his author moved from the apparent jurisprudential meaning, which represents Sharia and rulings - as stated in his book, "DAEAYIM ISLAM" - to the hidden, doctrinal meaning, which represents the truth, It is considered the authoritative book for interpreting Fatimid Shiite jurisprudence, and its author used to read it in educational gatherings, called wisdom councils, Therefore, it becomes clear from his approach that the book is essentially a collection of esoteric interpretations that were taught to the saints of the Ismaili doctrine at a specific time and in a specific council, This also indicates the extension of the book and its continuation in the life of the Ismaili sect after the death of Judge Al-NUMAN.

توطئة:

تأتي دراسة كتاب "تأويل الدعائم" للقاضي النعمان في إطار الاشتغال بالمكتبة الكلامية، التي شكلت ثروة كبيرة في التاريخ الإسلامي، دونت وأرخت لقضايا وإشكالات عقدية بين مختلف الملل والنحل، وكانت بمثابة وسيلة حجاجية لتدعيم مواقف فكرية وكلامية معينة، كما كانت وسيلة لنشر معتقدات فرقة ما، ومدارستها وتعلمها، كي تغدو مرجعا أساسا لمناصريها. وقد كان القاضي النعمان مسهما بمؤلفات عدة، أهمها "تأويل الدعائم"، في خط مسار تاريخي لفرقة انشقت عن الشيعة؛ وهي الإسماعيلية، وذلك من خلال نشر وتعليم معتقداتها التي أضحت المصدر الرسمي في إقامة الدولة الفاطمية. وهنا تثيرنا مجموعة من التساؤلات/الإشكالات حول كتاب "تأويل الدعائم" ومؤلفه القاضي النعمان، وحول الفرقة الإسماعيلية ومعتقداتها، وهذا سيقودنا بالضرورة إلى نهج تصميم محكم يقربنا من حياة القاضي النعمان وأهم مؤلفاته ومساهماته في خدمة الدعوة الإسماعيلية، كما يقربنا من الكتاب "تأويل الدعائم" من خلال دراسة عنوانه والبحث عن منهج صاحبه والوقوف عند أهم القضايا الكلامية التي يعج بها، بموازاة مع التعريف بالفرقة الإسماعيلية وأهم معتقداتها وأصولها...

المحور الأول: نبذة عن سيرة القاضي النعمان[1]:

أ- اسمه و نسبه وكنيته:

هو أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن حيون المغربي، يقال له القاضي النعمان تمييزا بينه وبين أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الفقهي المشهور.

ب- ولادته ووفاته:

عاش القاضي النعمان في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، من مواليد المغرب، ينحدر من أسرة تنتسب إلى قبيلة بني تميم العربية، وتوفي بالقاهرة سنة 363هـ.

ج- منصبه ومذهبه:

يعتبر ابن حيون من أركان **الدعوة** للفاطميين ومذهبهم بمصر، تفقه بمذهب المالكية وتحول إلى مذهب الباطنية، عاصر المهدي والقائم والمنصور وخدمهم، ولازم أكثر الإمام المعز، حيث قدم معه إلى مصر، فكان محط ثقته، جعله **قاضي القضاة وداعي الدعاة**، وقد ساعده في وضع أسس القانون الفاطمي والفقه الإسماعيلي.

د- مؤلفاته ومنزلته العلمية:

كان القاضي النعمان واسع العلم بالفقه والقرآن والأدب والتاريخ، أحد الأئمة المشار إليهم، ذا مواهب عديدة، مكثرا في التآليف، أنتج معظم أعماله خلال فترة حكم المعز لدين الله، فقد كان يعرض كتبه عليه قبل إذاعتها ونشرها بين الناس، وتعتبر مؤلفاته من الدعائم القوية التي ركز عليها المذهب الإسماعيلي، حيث جمعت ألوانا شتى من العلوم في الفقه والتأويل والتفسير والعقائد والسير والتاريخ...

ونذكر من مؤلفاته ما يأتي:

- اختلاف أصول المذاهب، يرد فيه على أدلة الاجتهاد وينصر الإسماعيلية.
- دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام.

- تأويل دعائم الإسلام، ويسمى "تربية المؤمنين".
- المجالس و المسايرات.
- افتتاح الدعوة.
- الاقتصاد، في فقه الشيعة.
- مختصر الآثار فيما روي عن الأئمة الأطهار.
- أساس التأويل.
- الهمة في آداب إتباع الأئمة.
- المناقب و المثالب.
- ردود، على بعض الأئمة كالشافعي ومالك وأبي حنيفة.
- شرح الأخبار في فضائل النبي المختار وآله المصطفين الأخيار.
- المنتخبة، قصيدة في الفقه.

المحور الثاني: لمحة عن العقيدة الإسماعيلية:

أ- تعريف الإسماعيلية ونشأتها:

تعد طائفة الإسماعيلية فرقة من الفرق الكبرى التي انتسبت إلى التشيع، وانتشرت بدعواه وأصبحت فيما بعد فرقة كبرى تنافس الشيعة الإمامية الإثني عشرية[2]، نشطت في أواسط القرن الثاني للهجرة، وسميت بالإسماعيلية لانتسابها إلى إمامها "إسماعيل بن جعفر بن محمد. ولقد كان الإمام جعفر الصادق من عظماء أهل البيت...يَعُدُّ ابنه لكي يكون إماما للمسلمين من بعده، لكن ابنه إسماعيل مات في حياته، وأشيع أنه حي لم يمت"[3]، وزعموا أنه لن يموت حتى يملك الأرض و يقوم بأمور الناس، وأنه هو **القائم**؛ لأن أباه أشار إليه بالإمامة بعده[4]، وقد افترق هؤلاء إلى فرقتين:

"أ- فرقة منتظرة لإسماعيل بن جعفر، مع اتفاق أصحاب التواريخ على موت إسماعيل في حياة أبيه.

ب- وفرقة قالت: كان الإمام بعد جعفر[هو] سبطه محمد بن إسماعيل بن جعفر، حيث إن جعفرا نصب ابنه إسماعيل للإمامة بعده، فلما مات إسماعيل في حياة أبيه علمنا أنه إنما نصب ابنه إسماعيل للدلالة على إمامة ابنه محمد بن إسماعيل"[5].

وللإسماعيلية ألقاب كثيرة منها: القرامطة والبابكية والسبعية والمباركية...ولكل لقب سبب[6]، وقد ذكر الشهرستاني أن أشهر ألقابهم: الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا[7].

ب- بعض أصولها ومعتقداتها:

يمكن أن نوجز أهم الآراء والمعتقدات المتعددة التي ينبني عليها الفكر الإسماعيلي فيما يأتي:

- ✓ يصفون أنفسهم بأنهم أهل التوحيد؛ لأنهم ينفون الصفات عن الله عز وجل، معتبرين أن كل صفة وموصوف هو مخلوق[8].
- ✓ أطلقوا لفظ الله على العقل الأول، واعتبروا وجوده كان عن طريق الإبداع لا عن طريق الفيض كما يقول الفلاسفة[9].
- ✓ يرفضون المعجزات وينكرون نزول الملائكة من السماء بالوحي و الأمر و النهي[10].
- ✓ يفرقون بين الوصاية و الإمامة، ويعتبرون أن عليا رضي الله عنه وصي ثم كانت الإمامة بعده في ابنه الحسن رضي الله عنه، جاعلين الوصاية أفضل وأعظم من الإمامة[11].
- ✓ تعتبر الإمامة عندهم أحد أركان الدين التي لا يصح أي عمل إلا بها، يقول ابن حيون: "فإن أطاع المرء الله ورسوله وعصى الإمام أو كذب به فهو آثم وغير مقبولة منه طاعة الله وطاعة رسوله"[12].
- ✓ تتكون الإمامة عندهم من نوعيين:

– إمامة مستقرة: تكون من آل البيت حسب سلسلتهم لهؤلاء الأئمة.

– إمامة مستودعة: يستلمها شخص يكون حجة أو داعية مقرب من الإمام مؤقتا لأسباب؛ إما أن الإمام المستقر صغيرا لا يستطيع القيام بمهام الإمامة، أو يجب أن يكون مستورا[13]...

- ✓ إضفاء طابع القدسية على أئمتهم، يؤكد ذلك وصف أحد الدعاة إمامه بأوصاف إلهية، يقول:

فوجهك وجه الإله المنير ونورك من نوره كالحجاب

يداك يد الله مبسوطتان وأنت له الجنب غير ارتياب

وإنك برصانه في الأنام وإنك صمصامه في النصاب[14]

- ✓ التمسك بالتأويل والقول أن لكل ظاهر باطن، فالظاهر هو الشريعة وصاحبها هو الرسول صلى الله عليه وسلم، والباطن هو الحقيقة وصاحبها هو علي رضي الله عنه[15].
- ✓ التخطيط الدعوي المنظم والكتمان الشديد لوثائقهم ومؤلفاتهم، يقول مصطفى غالب:

"من المشاكل المستعصية التي يصعب على المؤرخ والباحث حلها وسبر أغوارها وهو يستعرض تاريخ الدعوات السرية الباطنية وتنظيماتها، حرص تلك الدعوات الشديدة على كتمان وثائقهم ومصادرهم"[16].

ج– درجات دعاة الإسماعيلية:

لقد صنف الإسماعيليون دعاتهم في مراتب متفاوتة حسب جهدهم في العمل واستيعابهم لمعلومات المذهب ومدى تقبلهم لها.

وهذه هي درجات الدعاة ومراتبهم[17]:

1– الإمام: يعتبر قمة الدعاة ومصدر كل قانون أو تنظيم أو تشريع..

2– الباب: تعتبر هذه المرتبة سرية للغاية، لا يعرف شاغلها إلا الإمام نفسه..

3– داعي الدعاة: يشترط فيمن يصل هذه الرتبة أن يكون عالما بجميع مذاهب أهل البيت، فهو المالك لجماعة الدعاة وإليه الإشراف على الدعوة، ومن مهامه أيضا "عقد مجالس الحكمة للعامة و الخاصة، وكان يخول له تأويل آيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم دون الرجوع إلى الإمامة"[18].. وكان القاضي النعمان في هذه المرتبة.

4– داعي البلاغ: يكون مسؤولا عن تبليغ الأوامر التي يرسلها داعي الدعاة إلى الأقاليم وعن سريتها..

5- الداعي المطلق: يكون مرتبطا بداعي الدعاة مباشرة ليستمد منه العلوم وتوكل إليه مهمة تعليم العبادة العملية بأسلوب الباطن وتعريف الحدود العلوية ونشر التأويل..

6- الداعي المحدود أو المحصور: ويتعلق به مراسم العبادة العلمية الظاهرية وتعريف الحدود السفلية..

7- الجناح الأيمن

و 8- الجناح الأيسر: ملحقان بصورة دائمة بالداعي المطلق، يقدمان له الخدمات أثناء جولاته في الأقاليم للدعاية..

9- الداعي المأذون: من مهامه العمل مع الأشخاص المستجيبين الذين لهم رغبة في التزود بالتأويلات الباطنية، ويأخذ العهود والمواثيق المؤكدة عليهم بأن لا يفشوا السر...

10- المكاسر: من مهامه الأساسية مخالطته الناس بلا تحفظ وترغيبهم إلى عقيدته وفكرته..

د- أعلام الفكر الإسماعيلي:

نذكر من أبرز الأعلام الذين ساهموا في نشر الدعوة الإسماعيلية من خلال مؤلفاتهم ما يلي[19]:

- أبو حاتم أحمد بن حمدان بن أحمد الورسامي الليثي الرازي، (322هـ) من مؤلفاته: "الإصلاح" و"أعلام النبوة".
- أبو يعقوب إسحق بن أحمد السجزي السجستاني المعروف بِبندانه، (331هـ) من أشهر مؤلفاته: "كشف المحجوب" و"تأويل الشرائع".
- عبد الله بن أحمد النسفي، (331هـ) صنف كتابا أسماه "المحصول" و"الدعوة الناجية".
- حميد الدين أحمد الكرماني الملقب بحجة العراقين، (411هـ) من كتبه: "المصابيح في إثبات الإمامة" و"راحة العقل".
- القاضي النعمان، (363هـ) من أهم مؤلفاته في العقيدة الإسماعيلية: "دعائم الإسلام" و"تأويل الدعائم".

المحور الثالث: دلالة عنوان الكتاب "تأويل الدعائم":

أ- الدعائم:

دعائم، جمع دعامة؛ قال الزمخشري في مادة دعم: "مال حائطه فدعمه بدعامة ودعائم...وبيت مدعوم ومعمود، فالمدعوم الذي يميل فيريد أن يقع فتسند إليه ما يستمسك به...وادعم الحائط على الدعامة، اتكأ عليها. ومن المجاز: هو دعامة قومه، لسيدهم وسندهم، وهم دعائم قومهم، وأقام فلان دعائم الإسلام، ودعمت فلانا: أعنته وقويته، وهذه من دعائم الأمور: مما يتماسك به الأمور..."[20]

يتضح من هذا التحديد الوجيز لكلمة دعائم، أنها تكون مضافة إلى أشياء معينة، فيترتب عن هذه الإضافة/التعالق قوة وتماسكا في بنية الشيء، كأنها اللبنة الأساس والعروة التي ينبني عليها كل أمر.

ومن هذا المفهوم استوحى الكاتب لفظة دعائم التي أطلقها على مؤلفيه "دعائم الإسلام"[21] و"تأويل الدعائم"، إذ يقصد بذلك الأركان والركائز والأسس التي يقوم عليها الإسلام، والتي من غيرها يفقد الإسلام كليته وشموليته، ذلك أنه إذا اختل ركن اختل كل ما عداه، وهذا نظير قول الرسول صلى الله عليه وسلم:"بني الإسلام على خمس..."الحديث. ولو أن الدعائم أو الأركان التي يشير إليها ابن حيون تختلف تماما – من حيث المعنى والمقصد– عما قرره الرسول صلى الله عليه وسلم.

قد تتعلق الدعائم بما هو مادي/ حسي أو عقلي/ قلبي، وتعلقها بالقلبي يَعْظُم؛ لأن إنكار دعامة أو نقضها أو التفريط فيها، يستتبعه نقاشات كلامية حول مسألة الإسلام والإيمان، أو القول والعمل...

وهذه من القضايا العقدية/الكلامية التي أومأ إليها المؤلف في كتابه، مستندا في تقريرها وتسويغها على مفهوم التأويل.

ب- التأويل:

1- المعنى اللغوي:

التأويل: مصدر لفعل أول يؤول، وتدور مادته اللغوية على معان متعددة، يكاد جلها ينحصر في ثلاثة معان أساسية، نلخصها كالآتي22:

- ✓ الرجوع والعاقبة والمصير.
- ✓ الوضوح والظهور.
- ✓ التفسير والتدبر.

إن التأويل بهذه المعاني مجتمعة، لم يكن إلا وسيلة لفهم مراد المتكلم وحمل ألفاظه على المعنى الذي يليق بها، «ولم يكن وليد اتجاهات عقلية، وإنما هو ظاهرة استوجبتها خصائص اللغة العربية، وما تتميز به من كثرة الوجوه»[23]. فكأن المؤوِّل يرجع بالكلام إلى ما يحتمله من المعاني فيكشف عنه ويفسره.

وقد سبك الجوهري هذا المعنى فقال: «التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء، وقد أولته وتأولته تأولا بمعنىً»[24].

ولا يختلف معنى التأويل في الاستعمال القرآني عن معناه في اللغة، ويبدو هذا الأمر جليا من خلال استقراء الآيات الكريمة التي ورد فيها لفظ التأويل، ومن أقوال المفسرين لهذا اللفظ[25].

2- المعنى الاصطلاحي:

لقد حظي مصطلح التأويل باهتمام خاص لدى كثير من العلماء، فاختلفت عباراتهم في بيان المراد به من الناحية الاصطلاحية، لاختلاف مذاهبهم في تصور المراد بحدوده ووظيفته، نظرا لارتباطه الوثيق بالنص الديني، الذي من خلاله تسعى جميع العلوم الإسلامية إلى فهمه واستنباط أحكامه، محاولة إيجاد تصور معرفي يؤسس لعملية الفهم والتأويل معا، فقد ارتبط عند علماء الأصول بتأصيل الأحكام الشرعية، وإقامة أسسها العامة وقواعدها الكلية من المصادر التشريعية، وانحصر عند المتكلمين في مباحث العقيدة وما تعلق بها من آيات صفات الله عز وجل وأفعاله، فأولوها بما ظنوا أنه يتفق وتنزيه الله عز وجل عن مشابهة المخلوقات والحوادث، إلا أنهم اتفقوا جميعا في تعريفه، من حيث إنه «صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لاعتضاده بدليل يدل على أن مراد المتكلم بكلامه ذلك الاحتمال المرجوح»[26].

ويتأسس على هذا التعريف شروط لابد من توفرها ليكون التأويل صحيحا وهي:

- ✓ أن يكون اللفظ المراد تأويله يحتمل المعنى المؤول لغة وشرعا.
- ✓ أن يكون السياق محتملا.
- ✓ أن يكون الدليل على أن المراد هو المعنى المؤول.
- ✓ أن يسلم دليل التأويل من معارض أقوى.

لكن بالنظر إلى مفهوم التأويل عند الإسماعيلية أو الباطنية يتبين أنه أول نظام دعت إليه، فهو مرجع عقائدها وأحد أصولها التي تبني عليه معتقداتها، ولا أدل على ذلك من لفظة العنوان "تأويل".

ويعتقد الباطنية أن النصوص الدينية المقدسة هي عبارة "عن رموز وإشارات إلى حقائق خفية وأسرار مكتوبة، وأن الطقوس والشعائر بل والأحكام العملية هي الأخرى رموز وأسرار، وأن عامة الناس هم الذين يقنعون بالظواهر والقشور ولا ينفذون إلى المعاني الخفية المستورة التي هي من شأن أهل العلم الحق، علم الباطن"27، فبالتأويل يتم الكشف عن هذه المعاني الخفية وفهمها للوصول إلى المقصود الحقيقي من كلام الله.

ولأهمية التأويل الباطني وتأصيله عندهم، قالوا "إن الذي يقف على ظاهر القرآن ولا يقف على تأويله الباطن مثله مثل الحمار الذي يحمل أسفارا"28.

غير أن هذا التأويل الذي ينادي به الإسماعيليون يختلف تماما عن التأويل المعمول به لدى الفرق الإسلامية الأخرى، وذلك من وجهين:

- ✓ أولهما : عدم وجود دليل يقتضي صرف اللفظ عن ظاهره.
- ✓ وثانيهما: عدم وجود رابطة بين اللفظ والمعنى التأويلي الذي قصدوه.

وهذا ما سيتأكد لنا حينما سنعرض لبعض القضايا الكلامية التي يطرحها القاضي النعمان في كتابه.

وعموما فإن عنوان الكتاب "تأويل الدعائم" يحيل على أن المؤلف انتقل من المعنى الفقهي الظاهر الذي يمثل الشريعة والأحكام –كما هو مقرر في كتاب دعائم الإسلام– إلى المعنى الباطني العقدي الذي يمثل الحقيقة.

المحور الرابع: توصيف الكتاب وتبين منهج المؤلف:

أ– توصيف الكتاب:

ألف الإمام القاضي النعمان كتابا أسماه بـ"تأويل الدعائم"، حاول أن يبين فيه التأويل الباطني لجميع الأحكام الفقهية الظاهرة التي كان قد تناولها في كتابه "دعائم الإسلام". وهو بذلك يعد– تأويل الدعائم– من أهم المصادر المعتمدة في دراسة العقيدة الإسماعيلية، وعنوانه الأصلي هو "تربية المؤمنين بالتوقيف على حدود باطن علم الدين"، نشر منه محمد حسن الأعظمي بالقاهرة ثلاثة أجزاء فقط، ويقول الناشر إن القاضي النعمان توفي قبل أن يفرغ من تصنيفه، فيكون هذا الكتاب هو آخر مؤلفات النعمان[29].

وقد ذكر أن الكتاب تم تحقيقه على ثلاث نسخ من مخطوطات الإسماعيلية؛ الأولى من مدينة مصيان النزارية والثانية من قدموس والثالثة من دمشق، ولا توجد إلا في المكتبات الفاطمية السرية، ولعل هذا هو السبب في عدم انتشاره ووجوده بوفرة في سائر المكتبات أو الخزانات،

وربما هذا ينطبق على سائر كتب القاضي النعمان، بل كتب الباطنية، إلا ما وقع منها في باب الدراسة أو التحقيق.

وقد اعتمدت على نسخة غير محققة، صادرة عن منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات– بيروت– لبنان، الطبعة الأولى سنة 1426هـ/2006م. والكتاب في هذه النسخة مؤلف من مجلدين(جزأين) من الحجم الكبير، كل مجلد في حدود ستين وثلاثمائة صفحة، ويتألف الكتاب ككل من اثني عشر جزءا، ستة أجزاء صغرى منها بالمجلد الأول، وتتمتها في المجلد الثاني. دون ورود مقدمة

أو خاتمة، إلا فهرسا في نهاية الكتاب، يلفه نوع من الغرابة والإبهام، إذ لا نلمس فيه إرشادا إلى محتوى الكتاب، وهذا جلي من خلال العنوانات التي ضمها الكتاب والتي تأسس عليها نظام الفهرس، نجد مثلا في المجلد الأول:

الجزء الأول:

المجلس الأول من الجزء الأول

المجلس الثاني من الجزء الأول

المجلس الثالث من الجزء الأول

هكذا دون الإفصاح عن طبيعة هذه المجالس أو عن القضايا الكبرى التي تصح أن تكون عنوانا لكل مجلس. وعليه صار نظام الكتاب برمته، فكان كل جزء ينضوي تحته عشرة مجالس. وهذا ما سيدفعنا إلى صياغة مجموعة من التساؤلات التي نتغيا في إجابتنا عنها إزالة هذا الالتباس:

- ما سر هذه المجالس؟
- وأين تتجلى أهميتها؟
- وهل لها ارتباط بالعقيدة الإسماعيلية؟

ب- تأمل في خصوصية المجالس عند الإسماعيلية:

لقد عمل أئمة المذهب الإسماعيلي على نشر معتقداتهم وفقههم بوساطة دعاتهم الذين كانوا يعقدون دروسا في صورة مجالس تعليمية، وكان يتم إعداد هذه المجالس من خلال مؤلفات يكتبها الداعي ثم يبعثها إلى الإمام لتصحيحها قبل إلقائها.

وقد كان لهذه المجالس تنظيما متميزا في الزمان والمكان، وفي المادة التعليمية؛ إذ كانت تعقد المجالس التي تتناول الدروس الفقهية الظاهرة في المسجد الجامع بعد كل صلاة جمعة إلى حدود صلاة العصر، وهي مفتوحة للجميع، أما المجالس التي يدرس فيها التأويل الباطني فكانت خاصة بالمستجيبين(المؤمنين) الذين سبق لهم قطع العهد للإمام، ومن أجل الضبط التام كانت تقام داخل قصر الإمام المعز، وذلك يوم الجمعة، لكن بعد صلاة العصر.

وقد كان القاضي النعمان هو من يتولى الدعوة في تلك المجالس، يذكر في كتابه "المجالس والمسايرات" أنه كان يشرع بعد انصراف الإمام من صلاة الجمعة في قراءة كتب الفقه بالجامع...وبعد أن يحتفل المؤمنون في قصره، يقرأ عليهم في كل جمعة كذلك ما يُخرج إليه من الحكمة والوصايا والموعظة والعلم الحقيقي[30].

ويشير في نص آخر أن "الإمام المعتز لدين الله لما فتح للمؤمنين باب رحمته وأقبل عليهم بوجه فضله ونعمته، أخرج إلي كتبا من علم الباطن وأمرني أن أقرأها عليهم في كل يوم جمعة في مجلس قصره المعمور بطول بقائه"[31] .

وكانت تسمى هذه المجالس الخاصة التي تعقد في قصر الإمام ب"مجالس الحكمة" إشارة إلى أن الإمام هو مصدر الحكمة، وأن الداعي هو مجرد ناقل باسمه؛ ولذلك كان كل ما يلقيه الداعي في مجالس الحكمة يجب أن يحظى بموافقة مسبقة من الإمام.

ويعتبر كتاب الإمام القاضي النعمان "تأويل الدعائم" المعتمد الأساس في الدراسات الإسماعيلية، فيه يتم تفسير فقه الشيعة الفاطميين، والتأويل الباطني للأحكام التي وردت في كتابه "دعائم الإسلام". فكان يقرأ منه في مجالس الحكمة[32]، ولا شك أنه قد استشار الإمام المعتز في كل تأويل تأوله في كتابه، باعتبار الإمام هو المسؤول الأول عن التأويل.

إن المجالس المثبتة في فهرس كتاب التأويل تستجلي أمرا مفاده أن الكتاب في أصله عبارة عن مجموعة من التأويلات الباطنية التي كانت تلقن لأولياء المذهب الإسماعيلي في زمن محدد، ومجلس معين؛ ومن ثمة جاء الكتاب مبوبا حسب المجالس، تبعا لما سيلقن ويقرأ في كل جلسة/حصة. وفي ذلك إشارة أيضا إلى امتداد الكتاب واستمراره في حياة الفرقة الإسماعيلية بعد وفاة القاضي النعمان، يتدارسه جيل عن جيل، ويتلقاه الملقنون استجابة لأمر الدعوة.

ج- منهج المؤلف:

يمكن أن نستعرض لأهم الخطوات المنهجية التي سلكها المؤلف في تأليف كتابه فيما يأتي:

- يستفتح كل مجلس-مع اختلاف طفيف في الصيغ- من كتابه بالبسملة والحمدلة والصلاة على النبي محمد وآله الطاهرين، ثم يمهد لما سيثبته بقوله: قد سمعتم معاشر الأولياء/المستجيبين/الإخوان من هذا الحد الذي بسط لكم فيه باطن ما تقدم عندكم من ظاهر دعائم الإسلام، وأنتم تسمعون ما يتلو ذلك[.....]، فيستفيض في التأويل مدعما آراءه بالآيات والأحاديث وأقوال الأئمة.
- بدأ أول مجلس بتأويل قوله تعالى{ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين}المؤمنون:14، وقوله عز وجل{يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق}الزمر:6، أثبت من خلالهما أهمية علم الباطن باعتباره الأصل، وكذا أفضلية المستفيدين من هذا العلم، ثم بعض الوصايا التي يحث على الالتزام بها؛ ككتمان السر والاستجابة للدعوة والإخلاص لدين التوحيد وترك افتراء المبطلين[33].

ثم انتقل إلى تأويل ما جاء في كتاب "دعائم الإسلام" من القضايا والأحكام حسب كل مجلس: الإيمان والإسلام- الحلال والحرام- الفرائض...

- يتأول جميع الآيات والأحاديث والأحكام، فأحيانا يعرض ظاهرها ثم يتدرج منه إلى الباطن، وأحيانا أخرى يذكر الباطن المؤول مباشرة؛ مثال الأول: يقول "الطهارة في الظاهر الوضوء والغسل بالماء والتيمم بالصعيد لمن يجوز له ذلك من أحداث الأبدان، والطهارة في الباطن التطهر بالعلم وبما يوجبه العلم من أحداث النفوس"[34].

ومثال الثاني: ما نصه "أما قوله صلى الله عليه وسلم: بنيت الصلاة على أربعة أسهم سهم لإسباغ الوضوء وسهم للركوع وسهم للسجود وسهم للخشوع؛ فإسباغ الوضوء في الباطن المبالغة في التطهير من الذنوب بالنزوع عنها والتوبة منها وذلك أول حدود الدعوة"[35].

- يستشهد بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية دون ذكر سندها أو رواتها، منها الصحيح؛ كقوله صلى الله عليه وسلم: "رب حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه"، ذكر الحديث في سياق تسويغ فعل التأويل[36].

وكثير منها الضعيف والموضوع؛ قوله: الكلاب أمة من الجن- المؤمنون كالنحل لو علمت الطير ما في بطونها لأكلتها- أول العلم الصمت- تعلموا من عالم أهل بيتي- لكل شيء زكاة وزكاة العلم نشره- لا راحة في العيش إلا لعالم ناطق ومستمع واع...

- يستشهد بأقوال أئمة أهل البيت، وينسب كثيرا منها إلى علي رضي الله عنه؛ من ذلك: إن من أقر بالله وبرسوله وعرف إمام زمانه واعتقد ولايته فهو مؤمن وإن جهل غير ذلك- قيمة كل امرئ ما كان يحسنه- ليتهيأ أحدكم لزوجته كما يحب أن تتهيأ زوجته له...
- يقف عند الاشتقاقات اللغوية، ويذكر قول بعض أهل التفاسير-إذا لزمت الضرورة- مثاله: عند قوله تعالى{لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون}الصافات:47، قال "الغول في اللغة الصداع وقوله ينزفون، النزف في اللغة الذهاب، يقال نزفت البير إذا ذهب ماؤها ونزف دم الرجل إذا ذهب، ويقال للسكران نزيف ومنزوف لذهاب عقله، وذهب بعض أهل التفسير في قوله ينزفون إلى ذهاب أموالهم لما ينفقون فيها، فأخبر تعالى أن ذلك لا يصيب من شرب الخمر في الجنة ولا يشربها هناك إلا من استحق شربها"37.جاء هذا الكلام في سياق تأويل الأطعمة والأشربة.
- ختم كتابه الأول بتأويل جميع الآيات التي ذكرت فيها السجدة في القرآن الكريم.
- يختم كل مجلس بقوله: وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى الأئمة من ذريته وسلم تسليما، حسبنا الله ونعم الوكيل ونعم المولى ونعم النصير.

المحور الخامس: أهم القضايا الكلامية في الكتاب:

تتحدد أهم القضايا الكلامية في كتاب "تأويل الدعائم" من خلال أصلين متداخلين ومتصلين يشكلان المرجع الأساس لمعتقد القاضي النعمان أو لجميع معتقدات الإسماعيلية وآرائها، فعبرهما تنبثق باقي الأصول والمعتقدات، وهذان الأصلان هما: التأويل الباطني والإمامة.

ومادام التلازم والتعالق بين هذين الأصلين قائم لا ينفصل، فسنسرد بعض النصوص التي تفصح عن أهم هذه القضايا، ونعلق عليها:

- قال في المجلس الأول من الجزء الأول: "قال الباقر محمد عليه السلام: بني الإسلام على سبع دعائم؛ الولاية وهي أفضل وبها وبالولي ينتهي إلى معرفتها والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد. فهذه كما قال عليه السلام دعائم الإسلام قواعده وأصوله التي افترضها الله على عباده، ولها في التأويل الباطن أمثال: فالولاية مثلها مثل آدم عليه السلام...والطهارة مثلها مثل نوح عليه السلام...والصلاة مثلها مثل إبراهيم عليه السلام...والزكاة مثلها مثل موسى عليه السلام...والصوم مثله مثل عيسى عليه السلام...والحج مثله مثل محمد صلى الله عليه وسلم...فلم يبق بعد الحج من دعائم الإسلام غير الجهاد وهو مثل سابع الأئمة الذي يكون سابع أسبوعهم الأخير الذي هو صاحب القيامة...ويعد سابعا للنطقاء، إذ قد يجمع الله الناس كلهم على أمره فلا يدع أحدا خالف دين الإسلام وحدوده إلا قتله...ويكون[السابع] أقواهم.."[38].
- قال في المجلس الخامس من الجزء الأول: "وأما ما جاء في كتاب الدعائم من ذكر الأمر بغسل الوجه بعد المضمضة والاستنشاق، وذلك أول الفرائض، فالوجه في التأويل الباطن مثله مثل النبي صلى الله عليه وسلم في عصره، والإمام في زمانه، وكل واحد منهما به يتوجه أهل عصره إلى الله وهو وجه الله الذي يؤتي من قبله..."39.
- قال في المجلس الثامن من الجزء السادس: "...ويتلو ذلك ما جاء عن علي عليه السلام أنه قال في قوله تعالى{وإدبار النجوم}الطور:49، إن ذلك في ركعتي الفجر، وفي قول الله تعالى{وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا}الإسراء:78، قال هو الركعتان قبل صلاة الفجر، تأويل ذلك ما قد تقدم القول به من أن مثل ركعتي الفجر مثل الدعوة إلى المهدي عليه السلام في حياة الإمام قبله عليه السلام..ومثل صلاة الفجر مثل دعوته بعد ظهوره، وقرآن الفجر مثله هو في ذاته، والقرآن مثله مثل الإمام، والقراءة

به مثلها مثل دعوته والمفاتحة بها، والنجوم أمثال الدعاة بالدعوة المستورة إلى الأئمة المستورين من قبله...ولذلك كان عليه الصلاة والسلام أقام الدعوة في حياته ونص عليه وأخبر بأنه المهدي المنتظر وسلم الأمر إليه وهو حي"40.

- قال في المجلس التاسع من الجزء السابع: "وتأويل ذلك أن الوتر كما تقدم به في التأويل مثله مثل دعوة النبي ودعوة الوصي ودعوة المهدي عليه السلام، فالليل مثله مثل الستر والكتمان، فذلك مثل مدة ما بين علي والمهدي عليه السلام، لاستتار الأئمة أيام تلك المدة للتقية من عدوهم وإقامة الدعوة بذكر النبي صلى الله عليه وسلم والوصي والمهدي، إذ قد بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم به وذكر قيامه..."41.

يتضح من هذه النصوص المقتطفة- وإن كانت يسيرة- من كتاب الدعائم؛ أنها تحفل بكثير من القضايا الكلامية التي تزكي أصول ومعتقدات الإسماعيلية وتدعمها، ولا ارتياب في أن الكتاب كله يمثل ترجمانا لواقع الحياة السياسية والعقدية والتعبدية للدولة الفاطمية، وعليه يمكن أن نسجل بصدد هذه النصوص مجموعة من الملاحظات، نوردها كالآتي:

- أن التأويل الباطني الذي عده الإسماعيلية أصلا من أصولهم فتح لهم مجالا لتسويغ معتقداتهم وتشريع قوانينهم.
- أن تثبيت هذا الأصل(التأويل) أدى بهم إلى نسبة أحاديث موضوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
- ردهم على المخالفين ورميهم بالجهل لتمسكهم بالظاهر وعدم إلمامهم بعلم الباطن، وقد ذهب ابن حيون إلى أن توحيد أهل الظاهر هو إلى الشرك أقرب42.
- قسموا المعرفة إلى ظاهر وباطن، واعتبروا الإسلام ظاهرا والإيمان باطنا، وأن المعرفة لا تقوم إلا بهاتين الفكرتين.
- أوّلوا جميع التكاليف الشرعية والعملية، كالصلاة والزكاة والصوم والحج...
- جعلوا الإمامة هي أفضل الدعائم وأقواها، وأن الدين لا يستقيم إلا بها، ويبنى عليها صحة الأعمال وقبولها.
- فضلوا الإمامة على النبوة حين اعتبروا أن رتبتها أعظم قدرا وأفضل منزلة.
- تأليههم للأئمة؛ إذ رمزوا إلى الإمام في تأويلاتهم الباطنية بأنه هو وجه الله ويد الله...
- علم الأئمة للغيب، نقل ابن حيون في غضون تأويله لقوله تعالى{فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}النحل:43، قول المعز "سلوني قبل أن تفقدوني فوالذي خلق الحبة وبرأ النسمة لا تسألوني عن علم ما كان وما يكون وعن علم ما لا تعلمون إلا أخبرتكم، علمنيه النبي الصادق عن الروح الأمين عن رب العالمين"43.
- قولهم بعصمة الأئمة؛ من أدعية المعز العبيدي قوله: "الحمد لله الذي مَنَّ علينا بالعصمة ولم يجعل لنا فيما حرمه علينا شهوة"44.
- يخضعون لإمامهم السابع ويعتقدون أنه صاحب شريعة وأنه من النطقاء السبعة.
- يستبيحون دم الخارج على الإمام ويعتبرونه كافرا.
- يتشددون في كتمان أسرارهم وستر أئمتهم، أخذا بمبدإ التقية.
- توظيفهم لمصطلحات لها دلالات خاصة بهم، ومنها تتشكل عقيدتهم: سابع الأئمة- صاحب القيامة- النطقاء- الأئمة المستورين- التقية- الوصي- المهدي- الداعي- داعي الدعاة...

خاتمة:

من خلا ل ما سبق نخلص القول إلى أن:

- القاضي النعمان أبرز شخصية في تاريخ الدعوة الإسماعيلية.

- شكلت مؤلفاته ركائز أساسية في ترسيخ أسس العقيدة الإسماعيلية، والتأريخ لأئمتها، وتأسيس القانون الفاطمي.
- معتقدات الإسماعيلية تدور حول أصل الإمامة والاعتقاد بالأئمة والأخذ عنهم والتعلق بهم والعمل لأجلهم...
- التأويل الباطني هو المدخل الأول لبسط معتقداتهم وتثبيتها.
- جميع التأويلات مبنية على أسس فلسفية وذوقية، وهي تدور في أغلبها حول إشكالية الإمامة.
- كتاب "تأويل الدعائم" من أهم المصادر المعتمدة في نشر العقيدة الباطنية للإسماعيلية.
- يدرس الكتاب في مجالس الحكمة للمؤمنين المستجيبين للدعوة.

الهوامش:

1) ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر- بيروت، دط/دت، ج5/ 415 وما بعدها. وكتاب الأعلام لزركلي، دار العلم للملايين-بيروت، ط9/ 1986، ج41/8. ومقدمة تحقيق كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف- القاهرة، دط/1963،ج11/1.

[1]) السلومي سليمان، أصول الإسماعيلية، دار الفضيلة- الرياض السعودية، دط/ دت، ج195/1.

[3]) غالب مصطفى، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، دار الأندلس- بيروت، ط2/ 1965، ص: 88.

3) بدوي عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين- بيروت، دط/ 1998، ص: 832.

[5]) البغدادي عبد القاهر، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا للنشر و التوزيع- مصر الجديدة، دط/ دت، ص: 63.

[6]) ينظر: السلومي سليمان، أصول الإسماعيلية، ص:197 وما بعدها.

[7]) الشهرستاني، الملل و النحل، تعليق أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية- بيروت، دط/ دت، ص: 201.

) بدوي عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، ص: 963.[8]

) المرجع نفسه، ص: 978.[9]

) البغدادي عبد القاهر، الفرق بين الفرق، ص: 256-257.[10]

) السلومي سليمان، أصول الإسماعيلية، ص: 414.[11]

) ابن حيون القاضي النعمان، دعائم الإسلام، ص: 80-81.[12]

) ينظر: السلومي سليمان، أصول الإسماعيلية، ص: 419-420.[13]

) المرجع نفسه، ص: 423.[14]

) المرجع نفسه، ص: 475.[15]

) غالب مصطفى، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص: 35.[16]

) ينظر: السلومي سليمان، أصول الإسماعيلية، ص: 330 وما بعدها بتفصيل.[17]

[18]) ابن حيون القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي، دار المنتظر- بيروت، ط1/1996، ج211/2.

[19]) ينظر: البغدادي عبد القاهر، الفرق بين الفرق، ص: 248. وبدوي عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، ص: 935 وما بعدها.

[20]) الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1/ 1998، مادة: [دعم].

[21]) يعد كتاب دعائم الإسلام أقوم مصدر لدراسة القانون عند الفاطميين، مقسم إلى جزأين: الأول يبحث في العبادات، وهي: الإيمان من وجهة نظر الفاطمية- الطهارة- الصلاة- الزكاة- الصوم- الحج- الجهاد...ويغلب على معالجته لهذه الموضوعات الصبغة الكلامية. أما الجزء الثاني فهو يبحث في المعاملات: البيوع- الأيمان والنذور- الأطعمة- الأشربة- اللباس- الصيد- النكاح- الطلاق...(من مقدمة كتاب الدعائم، ص: 9-10).

[22]) ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف-القاهرة، دت، مادة [أ.و.ل].

[23]) السيد أحمد عبد الغفار، ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، دار المعرفة الجامعية، 1998، ص: 70.

[24]) الجوهري إسماعيل، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح أحمد عطار، دار العلم للملايين-بيروت، ط 1990/4، مادة[أ.و.ل].

[25]) ينظر: ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، ص: 22-28. فقد قام المؤلف بجرد جميع الآيات التي وردت فيها لفظة تأويل، ثم تتبع مدلولاتها اعتمادا على زمرة من التفاسير، فاتضح له مدى التوافق المعنوي بين استعمالات اللغويين واستعمالات القرآن لكلمة تأويل. وهو ما انتهى إليه أيضا محمد السليماني محقق كتاب قانون التأويل لابن العربي، مؤسسة علوم القرآن- بيروت، الطبعة1/1986، ص: 234-240.

[26]) ابن الجوزي، الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، تح محمود الدغيم، مكتبة مدبولي- القاهرة، ط1/1995، ص: 11.

) بدوي عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، ص: 751.[27]

) السلومي سليمان، أصول الإسماعيلية، ص: 474.[28]

) ابن حيون القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص: 14.[29]

) ابن حيون القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ص: 546.[30]

) المرجع نفسه، ص: 386.[31]

) المرجع نفسه، ص: 16.[32]

[33]) ينظر: ابن حيون القاضي النعمان، دعائم التأويل، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات- بيروت، ط2006/1، ص: 6 وما بعدها.

) المرجع نفسه، ص: 31.[34]

) المرجع نفسه، ص: 34.[35]

) المرجع نفسه، ص: 25.[36]

) المرجع نفسه، ص: 102.[37]

) ابن حيون القاضي النعمان، دعائم التأويل، ص: 9- 10- 11.[38]

) المرجع نفسه، ص: 57.[39]

) المرجع نفسه، ص: 348-349.[40]

) المرجع نفسه، ص: 349-350.[41]

) ابن حيون القاضي نعمان، تأويل الدعائم، ص: 3.[42]

) ابن حيون القاضي نعمان، المجالس والمسايرات، ص: 272.[43]

) ابن حيون القاضي نعمان، المجالس والمسايرات، ص: 418.[44]